﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾ [البقرة: 221]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مناسبةُ هذه الآية لما قبلها أنَّه لما ذكر تعالى حُكْمَ اليتامى في المخالطة، وكانت تقتضي المُناكَحَة وغيرها ممّا يُسمَّى مخالطة. عطف عليه ما يبعث على الرغبة في اليتامى، وأن ذلك أولى مما كانوا يتعاطون من الرغبة في المشركات، وبيَّن أنَّ أمَةً مؤمنة خيرٌ من مشركةٍ وإنْ بلغتْ النِّهاية فيما يقتضي الرَّغبة فيها، ليدلّ بذلك على ما يبعثُ على التَّزوج باليتامى، وعلى تزويجِ الأيْتَام عند البلوغ ليكونَ ذلك داعيةً لما أمَرَ به من النَّظر في صلاحِهم وصلاحِ أموالِهم[1].

ومناسبةٌ أخرى: أنه لما تقدَّم حكم الشُّرب في الخمر، والأكل في المَيْسِر، ذكر حكم المنْكَحِ، فكما حرَّم الخمْرَ من المشروبات، وما يجر إليه المَيْسِر من المأكولات، حرم النِّكاح من المشركات، والمشركين[2].

ومناسبةٌ أخرى وهي أنَّ المسلمين كانوا أيام نزول هذه السورة ما زالوا مختلطين مع المشركين بالمدينة وكان لهم أقارب وموالٍ لم يزالوا مشركين ومنهم يتامى فقدوا آباءَهم في يوم بدْرٍ وما بعده فلما ذكر اللّٰه بيانَ مخالطة اليتامى، وكانت المصاهرة من أعظم أحوال المخالطة تطلَّعتِ النُّفوس إلى حُكْمِ هاته المصاهرة بالنِّسبة للمشركات والمشركين، فعطفَ حُكْمَ ذلك على حُكْمِ اليتامى[3].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/407، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/173.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/173.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/359.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَنكِحُواْ﴾: النُّونُ وَالكَافُ وَالحَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، هو العَقْدَ دُونَ الوَطْءِ. يُقَالُ نَكَحْتُ: تَزَوَّجْتُ. وَأَنْكَحْتُ غَيْرِي[1]. وهو التزويج، وعقدُ المَهر، والميثاق الغليظ[2]. ويأتي النِّكاح: كِنَايَة عَن الجِمَاع نَكَحَهَا وأنكحها غَيره[3]. واختُلف في أصله فقال الأزهريُّ: أنّ أصلَ النِّكاح في كَلَام العَرَب الوطْء، وَقيل للتزوُّج نِكاح لِأَنَّهُ سببُ الوَطْءِ المُباح. وعقد التَّزْوِيج يُسمى النِّكاح، ولَا يُعرفُ شيءٌ من ذِكْر النِّكاح في كتاب اللّه إِلَّا على معنى التَّزْوِيج[4]. في حين ذكر الرَّاغب أنَّ أصله للعَقْدِ لاستقباحِهم ذكرَهُ كاستقباح تعاطيه، ومحالٌ أنْ يَسْتعيرَ من لا يقصد فحشا اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه[5]. وذكر السّمين الحلبي أنَّه لزومُ الشَّيء والإكبابُ عليه، ومنه: (نَكَح المطرُ الأرضَ)، أو أنَّ أصلَه المداخَلَةُ ومنه: تناكَحَت الشَّجر: أي تداخلت أغصانُها[6]، وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب فهو بمعنى الزَّواج[7]، إلا ما ورد في سورة الأحزاب من قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: 49]، فهو بمعنى العقد.

2) ﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: الشِّينُ وَالرَّاءُ وَالكَافُ أَصْلَانِ، أَحَدُهُمَا يدلّ عَلَى مُقَارَنَةٍ وَخِلَافِ انْفِرَادٍ، ومنه الشِّركةُ مخالطة الشَّريكين، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الشَّيء بَيْنَ اثْنَيْنِ لَا يَنْفَرِدُ بِهِ أَحَدُهُمَا. وَيُقَالُ: شَارَكْتُ فُلَانًا فِي الشَّيء، إِذَا صِرْتَ شَرِيكَهُ[8]، والإشراك باللّه جلّ وعزّ: هُوَ أَن يُدعى للّه شَريكٌ، تبَارك ربُّنا وَتَعَالَى[9].

وهو في الدِّين ضربان: أحدُهما: الشِّركُ العظيمُ، وهو: إثباتُ شريكٍ للّه تعالى، وذلك أعظمُ كفْرٍ. والآخر: الشِّرك الصَّغير، وهو مراعاة غير اللّه معه في بعض الأمور، وهو الرِّياء والنِّفاق. ولفظ الشِّرك من الألفاظ المشتركة، فأكثر الفقهاء يحملونه على الكُفَّار

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نَكَحَ).
(2) الخليل، العين: (نَكَحَ)، الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/32.
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (نَكَحَ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (نَكَحَ).
(5) الراغب، المفردات: (نَكَحَ).
(6) السمين، الدُّرُّ المصون: 2/414.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نَكَحَ).
(8) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة: (شَرَكَ).
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رشَكَ).

جميعا، ويرى آخرون أنَّهم عدا أهل الكتاب[1]. والذي جاء في القرآن من مفردات التَّركيب جلُّهُ بمعنى اتِّخاذ الكُفَّار شريكًا أو شركاء للَّه تعالى عمَّا يصفون[2].

3) ﴿يُؤْمِنَّ﴾: الهمزةُ والميمُ والنُّونُ أصلانِ أحدهما: التَّصْديقُ[3]. فالإيمان: التَّصديق، والطُّمأنينةُ، وزوالُ الخوفِ[4]، ويرادُ به إذعانُ النَّفْس، والانقيادُ للحقِّ على سبيلِ التَّصديقِ[5]. وعلى هذا فمعنى اللفظة في الآية المباركة يتضمّن هذه الدلالات من حيث إنَّ الإيمان باللّه والتصديق بما أنزله من شرع عن طريق رسله، وأنبيائه، والانقياد لما جاء به من الحقّ، مصداقُ وصف المؤمنين.

4) ﴿وَلَأَمَةٌ﴾: الأمة: المرأة ذات العُبُوديّة، والأنثى المَملوكَةُ خلاف الحُرَّة، والجمع إماءٌ وآمٍ[6]. ويبدو أنّ أصلها من الأَمَم: وهو الشَّيء اليَسيرُ الهَيِّن الحقير، تقول: لقد فعلتُ شيئًا ما هو بأمَمٍ ودُونٍ. ذلك أنَّ شأن المرأة غير الحُرَّة الهوان والاحتقار بسبب قيد العبودية[7]. ولم يخرج معنى اللفظ في الآية الكريمة عمَّا تقدَّم.

5) ﴿أَعْجَبَتْكُمْ﴾: العجب والتعجب: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشَّيء. ويُسْتَعار مرَّة للمونق، فيقال: أعجبه كذا أي: راقه،[8] وسَرَّه[9]؛ لكونه حسنًا جدًّا[10]. وكلُّ ما جاء من التَّركيب في القرآن الكريم من الثلاثي (عَجِبَ) ماضيهِ ومضارعِهِ، والصِّفة (عجيب)، والمبالغة (عُجاب) فهو بمعنى الاستغراب والإنْكار. أمّا الرباعيُّ منه (أَعْجَبَ) كما في لفظ الآية الكريمة فهو للاستحسان. ومأْخَذُ معنى الإعجاب، أو علاقته بالأصل اعتقادُ المُعْجَب بالشَّيء أنَّ الشَّيء مخالفٌ للمعهودِ في بابه[11].

(1) الراغب، المفردات: (شرك).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شرك).
(3) ابن فارس، المقاييس: (أَمَنَ).
(4) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، السمين، عمدة الحفاظ: (أَمَنَ).
(5) الراغب، المفردات: (أَمَنَ).
(6) الخليل، العين: (أمم)، الجوهري، الصحاح: (أما)، الزبيدي، تاج العروس: (أمو)، جبل، المعجم الاشتقاقي: (أمم).
(7) الخليل، العين: (أمم).
(8) الراغب، المفردات: (عجب).
(9) ابن سيده، المحكم: (عجب).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (عجب).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عجب).

6) ﴿وَلَعَبْدٌ﴾: العَيْنُ وَالبَاءُ وَالدَّالُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ الأَوَّلُ يدلّ عَلَى لِينٍ وَذُلٍّ[1]. ومنه أُطْلِقَ على: الإنسانِ حرًّا أو رقيقًا، يُذْهَبُ بذلك إِلَى أَنه مَرْبوبٌ لِباريه جَلَّ وعزّ. والعَبْدُ: المَمْلُوكُ، خلافُ الحُرِّ، وجمعُهُ: عَبِيدٌ، وفرّقوا بين عبادِ اللّهِ، والعبيدِ المملوكينَ، الخادمينَ لمولاهم[2]. فالعبدُ بحكم الشَّرع: الإنسانُ الذي يصحُّ بيعُهُ وابتياعُهُ، نحو: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ [البقرة: 178][3]. بوصفه مَحُوزًا محصورًا بالملك، كما أنَّه منقوصُ العِزّ والشُّموخِ ومأخذُه من الحَصر الشَّديد للشيء[4]، فهو بمنزلة المال المتملَّك.

7) ﴿يَدْعُونَ﴾: الدَّالُ وَالعَيْنُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَنْ تُمِيلَ الشَّيء إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وَكَلَامٍ يَكُونُ مِنْكَ. تَقُولُ: دَعَوْتُ أَدْعُو دُعَاءً. وَالدَّعْوَةُ إِلَى الطَّعَامِ بِالفَتْحِ[5]. والدُّعاء إلى الشَّيء: الحثُّ على قصده[6].

والمعنى المحوريُّ له جَذْب الشَّيء أو محاولة ضمِّه إلى حيِّز أو أمرٍ. وكلُّ ما عُدِّيَ بـ(إلى)، أو باللام فهو من الدعوة إلى دينٍ أو عملٍ وبعض ما هو بهذا المعنى مُعَدًّى بنفسه[7]. ويصْدُقُ ما تقدَّم على معنى اللفظ في الآية الكريمة.

8) ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: الذَّال والكاف والرَّاء أصلان، أحدهما: ذَكَرْتُ الشَّيء، خلافُ نسِيتُه، فالذِّكْرُ: الحفظُ للشَّيْء وتَذَكُّرُه، ثم حمل عليه الذِّكْر باللِّسان، أي: جَرْيُ الشَّيء على لسَانك[8]. والذِّكْرُ: مَا ذكرْتَه بلسانك وأظهرْتَه. والذِّكْرُ: الصَّلَاة للّه تَعَالَى، والدُّعاء والثناءُ. الذكْرُ: الصَّلاةُ، والذِّكْرُ قِرَاءَة القُرْآن، والذِّكْرُ: التسبيحُ، والذِّكر: الدُّعاء، والذِّكرُ: الشُّكْرُ، والذِّكْر: الطَّاعَة[9]. ويأتي الذِّكر بمعنى الوعظ؛ لأنه إذا تذكّر قد يزدجر[10]. ومعنى لفظ ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَبَدَ).
(2) الخليل، العين، الجوهري، الصحاح، ابن سيده، المحكم: (عَبَدَ).
(3) الراغب، المفردات: (عبد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عبد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دَعَوَ).
(6) الراغب، المفردات: (دعا).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (دَعَوَ).
(8) العين، ابن فارس، المقاييس: (ذكر).
(9) الأزهري، التهذيب: (ذكر).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أحكام مناكحة المشركين

سببُ نزول هذه الآية سؤالُ أبي مَرْثَدٍ الغَنَوي بعد إسلامه رسولَ الله ﷺ عن إمكانِ زواجِهِ من خليلةٍ له مشركةٍ كانت في الجاهلية، فنهاهُ عن التزوّج بها؛ لأنها مُشركة فنزلتْ هذه الآية[1]. وخلاصةُ معناها: أنَّ الإيمانَ فيصلٌ في مناكحة المشركين، في الزواج منهم أو تزويجهم، وهو قوام الخيريّة في الزَّواج، وليس الإعجاب، واعلموا أنَّ امرأة مؤمنةً بالله مملوكة لا مال لها ولا حَسَب، خير من امرأة مشركة، وإن أعجبتكم المشركة الحرة، واعلموا - كذلك - أن عبدًا مؤمنًا مع فقره، خير من مشرك، وإن أعجبكم المشرك؛ لما يترتّب على هذا الزواج والارتباط من مفاسد في الأسرة، وفي تربية الأولاد، ونشأتهم، وفي المجتمع.

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ طريقَ المؤمنِ في اختياره زوجًا يرضاها قرينةً له أنْ يطلُبَ ذاتَ الدِّين أولًا، ولا يقدِّم عليه ما يثير الإعجاب من منظرٍ، أو علوِّ نسبٍ، أو جاهٍ دنيويٍّ، فالمتصفون بالشرك رجالًا ونساءً يدعون كلَّ مَن يعاشرهم إلى ما يؤدِّي به إلى النار، والله سبحانه يدعو عباده إلى دينه الحق المؤدِّي بهم إلى الجنة ومغفرة ذنوبهم بإذنه، ويبين آياته وأحكامه للناس؛ لكي يتذكروا، فيعتبروا[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة التَّعْبير بلفظ النِّكاح والعُدول عَن غَيْرِهِ:

اسْتِعْمَالُ الْأَدَبِ فِيمَا يُسْتَحْيَى مِنَ التَّصْرِيحِ بِهِ

ذهب الرَّاغب الأصفهاني إلى أنّ النِّكاح اسمٌ للعَقْد، واستُعِير لِلْجِماع بدلالة أنَّ عامَّة أسماء الجماع كناياتٌ، وأنَّهم يتحاشَوْن التَّصريحَ بذكر الجماع وآلاته، كما يتحاشَوْن من إظهاره، حتى سَمَّوا ذلك العضوَ: السّوءةَ[3]، وذهب آخرون إلى أنّ النِّكاح أصْلُه الجِماع،

(1) الواحدي، الوسيط: 1/326.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/727، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 35.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/454.

ويُستعْملُ في التَّزوّج تجوّزًا واتِّساعًا[1]، فهو حقيقةٌ في العَقْدِ، مجازٌ في الوَطْء من بابِ الكِنَايةِ[2]، وهو في الآية بمعنى التَّزَوُّجِ.

جَـمْـعُ لَـفْـظِ النِّكَاحِ لِلْعَقْدِ وَالوَطْءِ مَعًا

والنِّكاحُ في أصلِ الوضع اللُّغَوِيِّ: الضمُّ، ومعنى الضمِّ حاصلٌ في العَقْد وفي الوَطْءِ، فيحسُن استعمالُ هذا اللَّفظ فيهما جميعًا، والعربُ فَقِهَتْ هذا المعنى ففَرَّقَتْ بين العَقْد والوطء بفرق لطيفٍ لئلَّا يحصل الالتباس، فإذا قالوا: نكَحَ فلانٌ فلانةً أرادوا تزوَّجَها، وعقدَ عليها، وإذا قالوا: نَكَحَ امرأتَه أو زوجته، فلا يريدون غير المجامعَةِ؛ لأنَّ في ذِكْر نكاح المرأة أو الزَّوْجة غنًى عن ذِكْر العقد، فلم تحتمل الكلمةُ غيرَ المجامعة[3]، وبهذا التَّفريق فإنّ المراد بلفظ ﴿تَنكِحُواْ﴾ في الآية الكريمة عقد التَّزويج على وجه الحقيقة، ويَلْزَمُ منه عادةً: الوَطْءُ.

نُكْتَة التَّعبير بلفظ الشِّرك دون غيره:

تَبَايُنُ الْأَحْكَامِ الْمُعَلَّقَةِ بِوَصْفِ الشِّرْكِ عَنِ الْمُعَلَّقَةِ بِوَصْفِ أَهْلِ الْكِتَابِ

المُشْرك في لِسان الشَّرع من يَدينُ بتعدّد آلهة مع الله سبحانه، والمراد به في القرآن مُشْركو العرب الذين عبدوا آلهة أخرى مع الله تعالى، ويقابلهم في تقسيم الكُفَّار أهل الكتاب وهم الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه ولكنهم أنكروا رسالة محمَّد ﷺ[4]، فلفظ المشركين اسمٌ لجنس معيَّنٍ، ولا يُطلقُ على اليهود والنَّصارى، فعند ذكر القرآن للنَّصارى واليهود يُعَنْوِنُهم بـ (أهل الكتاب)، والفَصْل بينهما بوصفهما جنسين مختلفين أدّى إلى الاختلاف في المعاملة، والاختلاف في الأحكام؛ بين مَنْ لهُ كتابٌ - وإنْ كانَ محرَّفًا - وبين مَنْ لا كتابَ له، ولا ضابطَ يضبطُه، ولا عاصمَ يحولُ بينَه وبينَ الإيغالِ المُطْلقِ في الشَّر، ولا حريجةَ دينيةً تقيِّدُهُ[5].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/67.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/266، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/359.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/408.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/360.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/716.

حُـرْمَـةُ نِـكَـاحِ الرَّجُلِ غَيْرَ نِسَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ

ولِما تقدّم من بيانٍ؛ يتبيَّنُ أنَّ المرادَ بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: ما لم يكن كتابيَّاتٍ، وإذا حملنَا معنى الشِّرْكِ على عمومِ الكفَّارِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ عامٌّ، مخصوصٌ بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[المائدة: 5][1].

سِرُّ التَّعْبير بحرف الغاية ﴿حَتَّىٰ﴾ دون (إلى):

الـدِّلالـة على مُنْتَهَى حقائق الإيمان؛ تمثُّلا لِـلـشَّـرائـط، وتـخـلُّـصًـا مِـنَ العوالقِ

حرفَا الجرِّ (حتى) و(إلى) يدلَّان على الغايةِ، إلَّا أنَّ استعمالهما في الغاية يختلفُ؛ ف (إلى) أمْكَنُ في الغاية من (حتَّى) وأعمُّ، وإيضاحُ ذلك أنَّ (إلى) تُستعملُ لعمومِ الغاياتِ، سواء أكانت آخرَ جُزءٍ مِنَ الشَّيء أم لا، فتقول: (قرأتُ الكتابَ إلى آخره، وقرأته إلى نصفه، وقرأته إلى ثلثه)، وأمَّا (حتَّى) فلا تستعمل إلَّا لِمَا كان آخرًا أو متَّصلا به، فتقول: (قرأت الكتاب حتَّى آخره)، ولا يجوز أنْ تقولَ: (قرأتُ الكتابَ حتَّى نِصْفَه)؛ لأنَّ منتصف الكتاب ليس آخره، ف (حتَّى) تُستعمل غايةً لآخرِ الأمر، ولفظها يوحي بهذا المعنى؛ إذْ يَبْدُو أنَّ لفظَها مِن (الحتّ) ومعنى (الحتّ) الاستئصال، والإزالة، والخلوص إلى النِّهاية، أي: الوصول إلى نهاية الأمر[2]، ولذلك اختيرت في سياق الآية؛ لتخصيص دِلالتها في الوصول إلى مُنْتَهى الإيمان تمثُّلا لشرائطه، وتخلُّصًا مِن عوالق الشِّرك وأدرانه وشوائبه، فذلك أدعى لديمومة حياةٍ زوجيّةٍ ذات استقامةٍ وإصْلاح ونفعٍ للزَّوجين والمجتمع.

الْبِشَارَةُ بِإِعْلَاءِ كَـلِـمَـةِ الـلـهِ تَـعَـالَى وَإِسْـلَامِ الْمُشْرِكِينَ

ومحدّد الغاية قوله: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، وفيه إشارةٌ إلى توقّع إيمان المشركين رجالهم ونسائهم، وأنَّ الفَتْح المبينَ ليس ببعيدٍ، فلا يتعجَّلَنَّ مَن يتعلّق بأنسابه، ويرى أحقّيّة المصاهرة بهم، فسيأتي اليومُ الذي يؤمنُ هؤلاء جميعًا، وبذلك يزولُ السَّبب الذي كان من

(1) الشَّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 13.
(2) السَّامرائي، معاني النحو: 3/35.

أجله التَّحريم، وهو الإشراك، وإنَّ في ذلك بُشرى للمؤمنين عامَّة بهذا الفتح، وبإعلاءِ كلمة الله، وبانتهاءِ القتال بين ذوي الأرحام الواصلة، وبشرى خاصة للذين يرغبون في الزواج مِن بنات أعمامهم ويحولُ الشِّرك دونهم[1].

بَلَاغَةُ التَّعْبِيرِ بِجُمْلَةِ: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾:

التّعبير بالأمة تعليل للنَّهي، وترغيبٌ، ومبالغةٌ في الحمل على الانزجار

أفادَ تصديرُ الجُمْلة بلام الابتداء الشَّبيهةِ بلام القسم مع الوصفِ: التَّأكيدَ؛ مبالغةً في الحمل على الانْزِجَارِ، والتَّعليل للنَّهي عن مواصلة الْمُشْرِكَات، والتَّرغيب في مواصلة المؤمناتِ[2].

نُكْتَةُ تَخْصِيصِ الأَمَةِ بِالْوَصْفِ دُونَ غَيْرِهِ:

إضفاءُ دِلَالَةِ الرَّحْمَةِ وَالتَّشْرِيفِ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ

في وصفِ (الأَمَةِ) بالإيمان في قول اللهِ سبحانه: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ تخصيصٌ لِلَفْظِ الأَمَةِ يُقرِّبهُ من التَّعريف وإن لم يكُن تعريفًا محضًا، وفي هذا الوصفِ من الإيضاح بعد الإبهام ما ليس في التَّخْصِيصِ بالإضافة، ففي التَّخصيصِ بالوصفِ زيادةُ تقريرٍ للغرضِ المسُوقِ له الكلامُ، وظلالُ دلالاتٍ تُوحي بالرَّحمة والتَّشريف، وإعلاء المكانة.

دِلَالَةُ حَذْفِ مَوْصُوفِ الْمُشْرِكَةِ:

دناءَةُ الْمُشْرِكَاتِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ تَزَوُّجِهِنَّ

اكتفى بالوصفِ في قوله: ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ من غيرِ ذكْرٍ للموصوفِ؛ تنبيهًا على دناءةِ المشركات، وتلويحًا بابتذالهنَّ، وتحذيرًا من تزوجهنَّ ومنَ الاغترار بما يكون لِلْمُشْرِكة من حَسَبٍ أو جمالٍ أو مالٍ، وأنَّ من لَمْ يستطعْ تزوّجَ حُرَّة مؤمنةٍ؛ فليتزوَّج أمَةً مؤمنةً، وذلك خيرٌ له من أن يتزوَّج حُرَّة مُشركةً.

قَرِينَةُ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنَةِ وَالْمُشْرِكَةِ:

الأَمَةُ هي المملوكة، والمشركة الحُرَّة، بقرينة المقابلة، أي: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ مع ما بها مِن خساسة الرِّقِّ وقلّة الخَطَر خيرٌ مِن مشركة مع

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/719.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/412، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/221.

أَدْنَى الْمُؤْمِنِينَ قَدْرًا - وَلَيْسَ فِيهِمْ دَنِيءٌ - أَعْظَمُ قَدْرًا مِنْ كُلِّ مُشْرِكٍ

ما لها من شَرَفِ الحرَّية ورِفعة الشَّأن، فالكلام وارد مورد التَّناهي في تفضيلِ أقلِّ أفراد هذا الصِّنف على أتَمِّ أفراد الصِّنف الآخر وأشرفهم، فإذا كانت الأَمَةُ المؤمنةُ خيرًا مِن كلِّ مشركة؛ فالحُرَّة المؤمنة خيرٌ مِن المشركة بدلالة فَحْوَى الخطاب التي يقتضيها السِّياق، ولظهور أنَّه لا معنى لتفضيل الأَمَةِ المؤمنة على الأَمَةِ المشركة؛ فإنَّه حاصل بدلالة فحوى الخطاب لا يشك فيه المخاطبون المؤمنون، ولقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾؛ فإنَّ الإعجاب بالحرائر دون الإماء[1].

دلالة التَّفْضيل بلفظ الخيريّة:

الْإِيمَانُ أَجَلُّ كَمَالَاتِ الْإِنْسَانِ

ليس التَّفْضيل هنا بلفظة ﴿خَيْرٌ﴾ من جهة الإيمان فقط؛ لأنَّه لا اشتراك مِن جهة الإيمان، لكنَّ الاشتراكَ موجود في المعاشرة، والصُّحبة، ومِلْك العِصمة وغير ذلك، ولفظة (أفعل) التي هي لِلتَّفضيل تقتضي عدمَ الاشتراك بالصِّفة عند أكثر العلماء، وتجيءُ في كلام العرب إيجابًا للأوَّل، ونفيًا عن الثَّاني[2]، فإنّ النُّقصان بالرِّقِّ في الأَمَةِ المؤمنة مجبورٌ بالإيمان الذي هو أجلُّ كمالاتِ الإنسان، ولو أعجبتِ المشركةُ بحسنها، ومالها، ونسبِها وغير ذلك؛ فإنَّ نقصان الكفر لا يُجبَرُ بها[3].

بَيَانُ حِكْمَةِ التَّحْرِيمِ اسْتِئْنَاسًا لِلْمُسْلِمِينَ

أو أنّ التَّفْضيلَ يقتضي المشاركة في الصِّفة، ولإحداهما مزيّة، فالخيرية في المؤمنة باعتبار الدُّنيا لما فيها من منافعَ دينيّة، فضلا عن منافع الآخرة، وفي الْمُشْرِكَة باعتبار الدُّنيا حَسْبُ؛ لاشتمالها على منافعها فقط؛ إمّا بكثرة المال، وإما بالنَّسب، وإمّا بالجَمال وميْلِ النَّفْس إليها، وبغير ذلك، والنَّفْعَان يشتركان في أصْلِ كونهما نفعًا، إلا أنَّ معانيَ الدِّين خيرٌ من أعراض الدُّنيا المنافية للدِّين،

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/116، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/361.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/297.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 2/116.

واجتماعُ نَفْعَيِ الدُّنيا والآخرة له المزيَّة العظمى، فالمقصود من التَّفضيلِ بيانُ حكمة التَّحريم استئناسًا للمسلمين[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِير بـ﴿وَلَوْ﴾:

تَـشْـرِيـفُ أَهْـلِ الْإِيمَانِ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ

الواو في: ﴿وَلَوْ﴾ حاليّة، أو للعطف على حالٍ محذوفة، والتَّقدير: خيرٌ من مُشركة على كلِّ حال، و﴿وَلَوْ﴾ وصليَّةٌ بمعنى إنِ الشَّرطية؛ لِلتَّنبيه على أقصى الأحوال التي هي مظنَّة تفضيل المُشْركة، ومع هذا فالأَمَةُ المؤمنة أفضلُ منها حتَّى في تلك الحالة، وما بعد ﴿وَلَوْ﴾ هذه إنَّما يأتي حالَ منافاتِهِ لما قبله بوجهٍ ما، فالإعجاب مُنَافٍ لحكم الخيريَّة، ومُقْتَضٍ جوازَ النِّكاح لرغبة النَّاكح فيها[2].

الْجَهْلُ بِحَقِيقَةِ الشَّيْءِ لَا يُوجِبُ حُكْمًا

وفي الجُمْلة تنبيهٌ على أنّ الاعتبار هو بإعجابهم، وليس الإعجاب إلَّا من ثمرة الجهل بحقيقة الشَّيء، والجهل لا يوجب حكمًا، فإذن لا اعتبار بهذا الإعجاب[3]؛ لأنّ هذا الإعجاب مستَمَدٌّ منَ الغريزة وحدها، ولا تشترك فيه مشاعر الإنسان العليا، ولا يرتفع عن حكم الجوارح والحواس. وجمالُ القلب أعمَقُ وأغلى، حتَّى لو كانت المسلمة أمَةً غير حُرَّة؛ فإن نسبَها إلى الإسلام يرفعها عنِ المشركة ذات الحسب. إنه نسبٌ في اللّه وهو أعلى الأنساب.

دِلالة إسنادِ الإعجاب إلى ذاتِ المُشْركة:

مَنَاطُ الْإِعْجَابِ بِالْمُشْرِكَةِ رَاجِعٌ إِلَى أَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ، وَإِيمَانُ الْمُؤْمِنَةِ أَشْرَفُ مِن ذَلِكَ كُلِّه

ضميرُ الفاعلِ المستَتِرُ في قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ يعود إلى المشركة، وأُسند الإعجاب إلى ذاتها، ولم يبيّن ما يُعجبُ منها؛ لإرادة مطلق الإعجاب، إما لجمالٍ، أو شرفٍ، أو مالٍ، أو حريَّةٍ أو غير ذلك مما يقع به الإعجاب[4]، والجُمْلة من إثبات ما يُتوهَّم

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 6/413، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/267، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 2/362.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/362.
(3) الرَّاغب، تفسير الراغب: 1/455.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/412، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/174.

نفيُه، أو نفي ما يتوهَّم ثبوتُه، مثل: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17][1].

دِلالة تَكرار الحُكم في قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

زَوَاجُ المؤمنةِ بالمُشْرِك أشَدُّ حرمةً مِن زواج المؤمنِ بالمُشْرِكة

تكرارُ القضيّة نفسِها في صورة أخرى: توكيدٌ لها، وتدقيقٌ في بيانها، ودفعٌ لاحتمال انحصار الحُرْمة في الصُّورة الأولى، والدَّليلُ: أنّ العِلَّة في الأولى هي العِلَّة في الثَّانية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ﴾، والحُكْمُ في الصُّورة الثانية أشدّ؛ لِما للرَّجل من قوامةٍ، واقتدارٍ في الزَّواج، ولذلك لم يُبَحْ تزوُّجُ المسلمةِ من الكتابيِّ اعتدادًا بقوة تأثير الرَّجل على امرأته، وذلك أدْعى إلى أنْ يجرَّهَا إلى دينه[2].

دِلالة الاكتفاء بذِكْرِ خيريَّة الأمَةِ وَالعَبْدِ:

الإيمَانُ يرفَعُ شأنَ الدَّنيء، والكفران يَخْفِض منزلةَ الشَّريف

أفهمَ الاكتفاءُ بذكر خيريّة الأمَةِ والعبْد شمولَ الحُرَّة والحُرّ من المؤمنين من بابِ أَوْلَى، مع مزيدِ التَّشريف العظيم لهما بترك ذكرِهما؛ إعلامًا بأنَّ خيريَّتَهما أمرٌ مقطوعٌ به لا كلامَ فيه، وأنَّ المفاضلةَ إنما هي بين من كانوا يعدُّونه دَنِيًّا فشرَّفَهُ الإيمانُ، ومن يعدُّونه شَريفًا فحقَّرَهُ الكُفران[3].

سرُّ إثبات وَصْفَيِ الإيمانِ والشِّرك في الموضعين:

الإيمانُ والكفرُ مناطَا التَّشريفِ والتَّحقير

أُثْبِتَ وصفُ الإيمان في الموضعين وذُكِرَ الموصوف به (الأمَةُ والعبد)؛ ليدلّ على أنَّه وإن كان دَنِيًّا فهو موضع تفضيل وتشريفٍ لعلوِّ وصفه، وأُثبت الوصفُ بالشِّرك في الموضعين مقتصرًا عليه؛ لأنه موضع التَّحقيرِ والتَّحريم، وإنْ علا في العُرف موصُوفُه[4].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/267.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/363.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/272.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/272، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/116.

نُكْتَة التَّعْبير باسمِ الإشارة الدَّالّ على البُعْدِ:

بُعْدُ أَهْلِ الشِّرْكِ عَن كُلِّ خَيْرٍ

التَّعْبير باسمِ الإشارة الدالِّ على البُعْد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُرادُ به المشركات والمشركون الذين هم أهلٌ للبُعْدِ من كلِّ خير؛ وفيه تنْبيهٌ بأنّ مخالطةَ أهلِ الشِّرك مظنَّة الفَساد، المؤدِّي إلى التَّهاون بالدِّين، فربّما دعا الزَّوجُ زوجتَه إلى الكُفْرِ، فقادَها الميْلُ إلى اتِّباعِه، وأنَّ صُحْبَتَهُم ومعاشرَتَهُم توجبُ الانحطاطَ في كثيرٍ من هواهم مع تربيتهم النَّسل[1].

سَبَبُ فَصْلِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ عمَّا قبله:

قَـرْنُ الْأَحْـكَـامِ بِعِلَلِهَا يَبْعَثُ فِي نفسِ العبدِ طُـمـأنِـيـنَـةً لِالْتِزَامِها

قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إشارةٌ إلى المشركات والمشركين جميعًا، وليس خاصًّا بالمشركين؛ لصلُوحه لِلعودِ إلى الجميع، والواو في ﴿يَدْعُونَ﴾ واو جماعة الرِّجال، وغُلِّب فيه المذكَّر على المؤنَّث كما هو الشَّائع في كلامِ العربِ.

والجُمْلة مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لكونها واردةً جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ ممَّا قبلُ، فنهي الله سبحانه عن نكاح المشركات وإنكاح المشركين، يبعث في نفس المتلقِّي سؤالًا عن العِلَّةِ في هذا الحكم، فجاء الجواب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، والمرادُ: تعليل النَّهي عَن نكاح المشركات وإنكاح المشركين؛ لما هم عليه مِنَ الالتباس بالمحرَّمات، والانغماس في القاذورات، والعِلَّة في الأولى هي العِلَّة في الثانية[2].

فهذه أفعال موجبةٌ للنار، وواجبُ اجتنابِ الدَّاعي إلى النَّار اجتنابُ الحاملِ عليها، فوجبَ مجانبتهم إذن، ويلزم العكسُ، فالدَّاعي إلى الجَنَّة واجبٌ اِتِّباعه[3].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/297، والبقاعي، نظم الدُّرر: 3/272-273.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/175، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/363.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/455.

نُكتةُ تنْزيلِ الفعل المتعدّي منزلةَ اللّازم:

دَعْـوَةُ المشركين الخَلْقَ إلى النَّار مِـن شَـأْنِـهـم وطبيعتهم؛ لقُبْحِ طَوِيَّتِهم

في جملتي: الدَّعوة إلى النَّار وإلى الجَنَّة تنزيلٌ لفعل الدَّعوة ﴿يَدْعُونَ﴾ المتعدّي منزلةَ اللّازم؛ وذلك لإثبات معنى الدّعوة إلى النَّار لَهم، والدعوة إلى الجنَّة لِلباري عزَّ في عُلاه؛ وفي ذلك إقرار أنّهم أهل دعوةٍ إلى النَّار، وأنه تعالى أهل دعوةٍ إلى الجنَّة[1]، والمعنى: أنَّه تصدر منهم دعوةٌ، بصرفِ النَّظرِ عن المدعُوِّينَ.

ويَحتمِلُ أن يكون الفعلُ باقيًا في دلالتِه على التَّعَدِّي، ويكون حذفُ المفعول لإرادةِ العموم؛ إذ حذف المعمول مُؤْذِن بذلك، والمعنى: أنَّ المشركين يدعونَ كلَّ أحدٍ؛ إمعانًا منهم في إضلالِ الخَلْقِ، واللّه ﷻ يدعو كُلَّ أحدٍ إلى الجنَّة؛ لسعةِ رحمتِه بهم، كما ذكر العلماءُ نظيرَه في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25][2].

والحاصلُ أنَّ مفعولَ فعلِ الدّعاءِ محذوف، إمَّا اقتصارا؛ إذِ المقصود إثبات أنَّ مِن شأنهم الدُّعاءَ إلى النَّار مِن غير ملاحظة مفعولٍ خاصٍّ، وإمَّا اختصارًا، فالمعنى: أولئك يدعونَكُم إلى النَّار[3]، أو يدعونَ كُلَّ أحدٍ.

عِلَّة التَّعْبيرِ بالمجاز المرسل في لفظ الدُّعاء إلى النَّار وإلى الجَنَّة والمغفرة:

المُبَالَغَةُ في التَّنفيرِ مِن أهلِ الشِّرك

معنى الدُّعاء إلى النَّار: الدُّعاء إلى أسبابها؛ فإسناد الدُّعاء إليهم حقيقة عقليّة، ولفظ النَّار مجازٌ مرسلٌ أُطْلِقَ على أسباب الدُّخول إلى النَّار؛ فإنَّ ما هُمّ عليه يجرُّ إلى النَّار من غيرِ علم[4]، ونكتةُ التَّعبير بالمجاز ههنا: المبالغةُ في التَّنفيرِ من دعوتِهم. ويجوزُ أن يكون ذلك من حذف المضافِ وإقامة المضافِ إليه مُقامه، فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يدعون إلى أسبابِها.

(1) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/111.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/286.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/175.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/363.

وكذا الأمرُ في الدُّعاء إلى الجَنَّة والمغفرة هو على طريق المجاز المُرسل، علاقتُه المسبِّبيَّة؛ إذْ ذُكِرتِ المغفرة وهي المسبَّب، وأُريدتِ التَّوْبة وهي السَّبب في المغفرة[1]، والدَّعوة إلى الجنَّةِ يُرادُ الدَّعوة إلى أسبابِ دخولهَا، والنُّكْتَةُ في ذلك: شدَّةُ التَّرغيب في الجَنَّةِ.

أقـربُ الأسبـابِ وأعمُّها لِلدُّخول إلى الجَنَّةِ.

وقُرِنَ لفظُ المغفرة بالجَنَّة؛ لكونِ المغفرةِ أقربَ الأسبابِ وأعمَّها للدخول إلى الجَنَّة.

سرّ تقديم الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ على الفعلِ:

التَّرْغِيبُ في الإقبَالِ على اللهِ تعَالَى

لما رهَّبَ الله تعالى من أهل الشِّرك حثًّا على البُغْضِ فيه؛ رغَّبَ في الإقبال إليه سُبْحانه وتعالى بتقديم اسمه الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾[2]، تقويةً لِما تقدّم من حكم، وتقريرًا له[3]، فضلا عن كونهِ الاسمَ العلم الجَامع لسائر صفاته الشّريفة جلَّ في عُلاه، وإظهاره مُقَدَّمًا أدْعى إلى تربية المهابة في النُّفوس، ومؤدّاها تجنّبُ نواهيه، والحذرُ من الوقوع في المحرَّم، وتحرّي ما هو أسْلَم.

نُكْتَة تقديم الجَنَّة على المغفرة:

تَشْوِيقُ النُّفُوسِ إِلَى الْجَنَّةِ

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ﴾: الأصلُ تقديمُ ﴿وَٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾؛ لأنَّها سببٌ في دُخُولِ الجَنَّة، وأنّ حقَّ التَّخلية أن تُقدَّم على التَّحلية، وذلكَ من عادات القرآن الكريم، كما في قول الله تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: 133]، وقوله سبحانه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد: 21]، وإنما أُخِّرَت هنا لتحسُنَ المقابلَةُ، أي: لرعاية مقابلة النَّار ابتداءً؛ فإنَّ قبلَها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾، فقدَّم الجَنَّة ليقابلَ بها النَّار لفظًا، وليُشَوِّقَ تعالى النّفوسَ إليها حين ذَكَرَ دعاءَه إليها، فأتَى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/175، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/363.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/273.
(3) الإندونيسي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/111.

بالأَشْرَفِ للأشْرَفِ، ثم أَتْبَعَ بالمغفرة على سبيل التَّتِمَّة في الإحسان، وتهيئَةِ سببِ دخول الجَنَّة[1].

وذلك أنّه لا يُوصَل إلى الجَنَّة إلَّا بعد القصاص؛ بفعل ما يؤدِّي إلى أن يَغْفِرَ لهم ويُهذِّبَ نفوسَهُم بحيث يصيرون إلى حالةٍ سَنِيَّةٍ يغفرونَ فيها للنّاس ما أتوا إليهم[2].

فائدة المقابلةِ بينَ دعوة المشركينَ ودعوةِ الله تعالى:

تفظيعُ دعوةِ المشركينَ بِبَيانِ ضدِّيَّتِها لدعوةِ اللهِ تعالى

وجه المقابلة بين دعوة المشركين ودعوة اللّه ﷻ: بيان أَنَّها مضادَّةٌ لدعوة اللّه تعالى، والمقصود من هذا تفظيع دعوتهم وأَنَّهَا خلاف دعوةِ الحقِّ المؤدّية إلى الجَنَّة[3].

دلالة حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامه:

كمالُ التَّشريف لِأهـلِ الإيـمـانِ ولدينِ الإسلامِ

وممّا وُجِّهَ به قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أنّ اللّه يدعو، وأولياءُ اللّه يدْعون وهم المؤمنون على حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامه، بقرينةِ إسناد مقابله وهو الدّعاء إلى النَّار للمشركين، وفي ذلك تشريفٌ لأهل الإيمان، وتفخيمٌ لشأنهم؛ حيث جعل فعلَهم فعلَ نفسِه صورةً، وكمال تشريف لدين الإسلام، كما قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10][4].

تأكيدُ التَّباعُدِ مِنَ المُشركِين

وَإجراء اللَّفظ على ظاهره من نسبة الدُّعاء إلى اللّه تعالى آكَدُ في التَّباعد مِن المشركين؛ إذ جعل موجدَ العالَم منافيًا لهم في الدُّعاء، فهذا أبلغُ مِنَ المعادلة بين المشركين والمؤمنين[5].

بلاغَةُ التَّعبير بطباقِ الإيجابِ:

جاءَ التَّعبيرُ عن هذه المتضادَّات: ﴿مُّؤۡمِنَةٌ﴾، و﴿مُّشۡرِكَةٍ﴾،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/176، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/222.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/273-274.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/363.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/269، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/222، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/117.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/175.

و﴿مُّؤۡمِنُۚ﴾، و﴿مُّشۡرِكٖ﴾، و﴿ٱلنَّارِۖ﴾، و﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ بِطِبَاقِ الإيجاب، وفي هذا إفصاحٌ عن دِلالة الرَّبط في الجُمَل المتضمّنةِ هذه الألفاظَ المؤدّي إلى مزيدِ إيضَاحٍ للمعنى وبيانه؛ بما يسبِّبه من شدٍّ وجذْبٍ للنَّفس المتلقِّية له قراءةً وتدبُّرًا، وفي ذلك تعزيزٌ للوظيفة الإبلاغيّة للطِّباق بالوظيفة التأثيريّة التي يترسّخ مِن خلالها المنهج الفطريّ السليم للنَّفس البشريّة بالاتّصاف بالإيمان والنُّزوع نحو تَمثُّل شروطِهَا، ونبذ الشِّرك والتحرّز من مظاهره، واتبّاع السَّبيل المؤدّية إلى الجَنَّة، ونبذ سُبُلِ المصير إلى النَّار، وزاد تناسُبُ هذه الألفاظ بصيغة الطِّباق من ترسيخ هذه الدَّلالة.

تعزيزُ الوظيفة الإبلاغيّة للطِّباق بالوظيفة التأثيريّة

نُكْتَةُ تَقْيِيد الدُّعاء إلى الجنَّة بالإذْنِ:

يُطلق الإذن على الأمر والقضاء وعلى الإعلام، كما يطلق على الإرادة والمشيئة مع الرِّضا والتَّوفيق والتَّيسير؛ وهذه المعاني متحقِّقة في هذه الجُمْلة السَّامية؛ فإنَّ اللّه سبحانه أعلم النَّاس بطرق الجَنَّة والمغفرة، وآذنهم بها ليسلك من يريد السّلوك، وأمرهم أمرًا قاطعًا بالحقِّ في كلِّ شيء ليطيع من طلب الحقَّ وسلك سبيله[1].

سُلوكُ طريقِ الجنَّة يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ بتَوْفِيقٍ مِنَ اللهِ تعالَى

وفي تقييد الدُّعاء إلى الجنَّة والمغفرة بالإذن إشعارٌ بأنَّ استجابةَ العبادِ لدعوة اللّه تعالى إنَّما تكون بتيسيرِ اللّه تعالى وتوفيقِهِ لهم.

دِلالة الوصلِ في جُملة ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

قول اللّه تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ معطوفٌ على ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾؛ لما بينهما من التَّوسُّطِ بين الكمالين؛ فإنَّ كِلْتَا الجملتين خبريَّةٌ، واشتركا في المسندِ إليه وهو اللّه ﷻ، وحسَّن الوصلَ كونُ الجملتين فعليَّتَين، والمعنى: أنَّ اللّه تعالى يدعو إلى الخير مع بيانِهِ وإيضاحِه حتَّى تتلقَّاه النّفوس بمزيد القبول وتمام البصيرة، فهذا كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

لأداء معنى التَّذْييل، أو المجاز في الحصول القريب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/363، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/726.

ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [البقرة: 219]، ففيها معنى التَّذْييل، وإن كانت واردة بغير صيغتِه[1].

دِلالةُ جمع الآياتِ وتعريفِها بالإضافة:

تعدُّدُ آياتِ الله تعالى وتَجَدُّدُهَا

إضافة الآيات إلى ضمير الاسم الأحسن تخصيصٌ لها بالله ﷻ، وتنبيهٌ على مكانتها وأهميتها وشرفها، والتَّعْبير بها بصيغة الجمع دِلالة تعدّدِها، وتجدّدها، ويرسّخ ذلك التَّعْبيرُ بالجُملة الفعليَّة الدَّالَّة على الاستمرارِ التجدّديِّ.

عِلَّة التَّعْبير بحرف الجرّ (اللَّام):

آياتُ الله تعالى سَبِيلُ التَّفكّر ودليلُ تَحْصِيلِ الإيمانِ

قولُ الله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾، أي: من أراد سعادته وغيره[2]، و(اللَّام) معناها الوصولُ والتَّبليغ، والتَّبْيين[3]، وهي هنا مفيدةٌ زيادةَ تقويةِ فعل التَّبيين وإيصاله وتبليغه إلى السَّامع؛ تنبيهًا على علوِّ شأن آيات الله تعالى بوصفها مقدّماتٍ للتَّدبُّر، وسُبلا للتَّفكّر، ودلائلَ إلى تحصيل الإيمان.

قصْديَّة التَّعْبير بلفظ التذكّر دون غيره:

التَّدرُّج في التذكّر مظنّةُ إطالةٍ وتفصيلٍ

تظهرُ مع استعمال هذه الصّيغة من الفعل (يتذكَّر) صيغةٌ مُشابهةٌ لها وهي (يذَّكَّر)، ويفرّق الدّكتور فاضل السّامرائي بينهما من حيث إنّ بناء (يتفعّل) أطولُ في النُّطقِ؛ لكونه يتكوّنُ من خمسة مقاطع (يَ/تَ/ذَكْ/كَ/رُ) ولذلك استُعمِل لما هو أطْولُ زمنًا، ولما فيه مقام إطالةٍ وتفصيل؛ بسبب معنى التَّدرّج الذي يكتنفه.

فبناء (يَذَّكَّر) أقصرُ في النُّطقِ؛ لتكوّنه من أربعة مقاطع (يَذْ/ذَكْ/كَ/رُ)، لكنَّ فيه تضعيفًا زائدًا، ولذلك جيءَ به في مواطن المبالغة في الحدث والإكثار منه؛ لما فيه من معنى التّكلُّف وبذل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/364.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/274.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/176.

الجُهْد، ومن هنا جاء في سياق الآيات مقترنا بلفظ الزَّيغ، وشرّ الدّواب، والمرض، والنُّفور، كما في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: 7]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [الأنفال: 55 - 57]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾ [التّوبة: 125 - 126]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾ [الإسراء: 41].

دِقَّـةُ اخْـتِـيَـارِ الصِّيَغِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي مـقـامـاتٍ مناسبةٍ

والوصولُ إلى تبيّن آيات الله أمرٌ يحتاجُ إلى طولِ تدبُّرٍ، وعمقِ تأمّلٍ، وامتداد نظرٍ، ومحاكمة عقليّة؛ لكونها أمرًا عقليًّا يُتَحَصَّلُ بالتّدبّرِ، وطولِ التّفكُّرِ، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧﴾ [الزمر: 27]، فالخلوصُ من الأمثالِ إلى مواطن الحِكْمة والاتِّعاظ، وعقدُ الصِّلة بين المَثَلِ والواقع يحتاجُ إلى طُولِ تذكّرٍ، وتأمّلٍ وإحكامٍ عقليٍّ، فاستعملَ يتذكَّرون[1].

مَـوْرِدُ الـتَّـذَكُّـرِ: الـتـأمّـلُ وطُـولُ النَّظرِ

ويرسِّخ معنى طُولِ التَّفكّر، وامتدادِ التَّدبّر: التَّعْبيرُ بصيغة المُضارع للحثِّ على تكرار التَّذكّر، وتجدّده بتجدّد الآيات، وليرجُوَ النَّاس أنْ يكونوا في حالِ تذكُّرٍ دائم لربِّهم وشَرْعِهِ، وخالقِهم وما أنزَلَ لهم من أحْكَامٍ تُصْلِحُ دُنْياهم، وتُقَرِّبهم إلى الله زُلفى، فينالون رضْوانَه يومَ الدِّين[2].

(1) السّامرائي، بلاغة الكلمة، ص: 55-42.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/727.

دِلالة التَّعْبير بحرفِ الرَّجاءِ (لعلَّ):

لتأدية معنى التَّعليل

حرفُ الرَّجاء في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ في معنى التَّعليل؛ لأنَّ الرَّجاء من الله تعالى في موضع التَّحقيق؛ أو: الرجاء على حقيقته؛ وهو مِن العبد لَا من الربّ[1]. فهو تعالى يُظْهر آياته ويكْشفها بحيث لا يحصل فيها التباس؛ رجاءَ أن يحصل بظهور الآيات تذكُّرٌ واتِّعاظٌ؛ لأنَّ الآيةَ متى كانت جليَّةً واضحةً، كانت بصدد أنْ يحْصُلَ بها التذكُّرُ، فيحصلَ الامتثالُ لما دلَّتْ عليه تلك الآياتُ من موافقةِ الأمْرِ، ومخالَفَةِ النَّهي[2].

دِلالة فَتْحِ حَرْفِ المُضارعة وضَمِّه في فِعْلِ النِّكاح:

حُرْمَةُ تَزْوِيجِ المرأةِ نَفْسَهَا دونَ وَلِيِّها

فُتِحَتِ التَّاء في ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ وضُمَّتْ في ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لكون الأوَّلِ فعلًا ثلاثيًّا (نَكَحَ)، والآخرِ رُباعيًّا (أنكَحَ)، واستدلَّ بها كثيرٌ من الفقهاء على أنَّ المرأة لا تباشر عقْدَ زواجها بنفسها، وأنه لابد من الوليّ، ولو كانت بالغة عاقلة رشيدة، ففتحُ التَّاء دالٌّ على أنَّ العقدَ للنفس، وضمُّها للدَّلالة على أنَّ العقْدَ في مقام تزويج الأنثى للرَّجُلِ، وعليه؛ فلا يجوز لها مباشرة عقْدِ الزواج بنفسها ولا يسوغُ لها أنْ تنْفَردَ به دون وليِّها[3]، ومصداقُه قولُ رسول الله ﷺ: «لا نِكَاح إلا بولِيٍّ»[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النِّكاح، والزواج، والعقد، والوطء:

النِّكاح: الضمُّ، ومعنى الضمِّ حاصلٌ في العَقْد وفي الوَطْءِ،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/727.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/176.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/721.
(4) رواه أحمد في المسند، حديث رقم: (19518)، وأبو داود في سننه، حديث رقم: (2085)، والترمذي في جامعه، حديث رقم: (1101)، وابن ماجه في سننه، حديث رقم: (1881)، كلهم من حديث أبي موسى الأشعريِّ ﷺ، وصحَّحه الألباني في إرواء الغليل، حديث رقم: (1839).

فيحسُن استعمالُ هذا اللفظ فيهما جميعًا، والعربُ فَقِهَتْ هذا المعنى ففَرَّقَتْ بين العَقْد والوطء بفرق لطيف حتى لا يحصل الالتباس، فإذا قالوا: نكَحَ فلانٌ فلانةً أرادوا تزوَّجَها، وعقدَ عليها، وإذا قالوا: نَكَحَ امرأتَه أو زوجته فلا يريدون غير المجامعَةِ؛ لأنَّ في ذِكْر نكاح المرأة، أو الزَّوْجة غِنًى عن ذِكْر العقد، فلم تحتمل الكلمة غير المجامعة[1]. وبهذا التَّفريق فإنّ المراد بلفظ ﴿تَنكِحُواْ﴾ في الآية الكريمة عقد التَّزويج على وجه الحقيقة أو المجاز، ومؤدَّى العَقْدِ مِنْ ثَمَّ الوَطْءُ.

لدفع اللبس بين عقد النِّكاح، والمباشرة

وإيثار لفظ النِّكاح؛ لأنّه أخفُّ من (تزوج) وكل مَا كَانَ أخف كَانَ ذكره أَكثر. والثقيل من الكَلِمَات: مَا كثرت مدلولاته ولوازمه، كالفعل، فَإِن مدلولاته الحَدث وَالزَّمَان، ولوازمه الفَاعِل وَالمَفْعُول وَالتَّصَرُّف وَغير ذَلِك والخفيف من الكَلِمَات: مَا قلَّ فِيهِ ذَلِك، كالاسم، فَإِنَّهُ يدلّ على مُسَمّى وَاحِد، وَلَا يلزمه غَيره فِي تحقق مَعْنَاهُ[2].

وفي لفظ النِّكاح خفّة يؤثرُ معها اللفظ

الكفر والشِّرك:

الكُفْرُ: اسمٌ جامعٌ لعديدِ الذُّنوبِ، وهو يقعُ على ضروبٍ منه، والكافرُ: الجاحد لأنعم الله التي لا تحصى. وهو "على الإطلاق متعارفٌ فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوة، أو الشَّريعة، أو ثلاثتها، وقد يُقال كَفَرَ لمن أخَلَّ بالشَّريعة، وتركَ ما لزِمَهُ من شُكْرِ الله"[3]. في حين أنّ الشِّرك " إثباتُ شريك لله، وذلك أعظمُ كفرٍ، أو مراعاةُ غير الله في بعضِ الأمور"[4]. فهو: ضربٌ واحدٌ من الذُّنوب على عِظَمِ شأنه، وفداحةِ وصْفِه؛ لذا فهو أخصُّ.

الكفر لفظ عام، والشِّرك لفظ خاصٌّ

ولكثرة استعمال القرآن هذا اللفظ في معنى عبادة غير الله،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/408.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 324.
(3) الراغب، المفردات، ص: 374.
(4) المصدر نفسه: 374.

من خصوصيّة لفظ الشِّرك إطلاقه على عبادة الأوثان

أو إثبات شريك لله في العبادة كان لكلمة ﴿مُشْرِكٍ﴾ إطلاقٌ خاصٌّ فيه؛ وهو إطلاقه على من يعبد الأوثان؛ فكلمة: مشرك، ومشركين، ومشركات، كلها إذا ذكرت في القرآن انصرفت إلى عبدة الأوثان من غير أية قرينة دالة على ذلك؛ لأنها صارت في الإسلام حقيقة عرفية عليهم؛ إذ صار لفظ المشركين اسمًا لجنس معيَّن، ولا يُطلق على اليهود والنصارى، فعند ذكر القرآن للنصارى واليهود عنونهم بـ(أهل الكتاب)[1].

دلالة التفريق الاختلاف في المعاملة، والأحكام

يضيف أبو زهرة أنّ في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة: 1] ذِكرًا للجميع بعنوان الكُفْر؛ ولكنَّه فصَلَ بينهما، فجعلهما جنسين مختلفين، وإنَّ ذلك أدّى إلى الاختلاف في المعاملة، والأحكام؛ وكانت العِلَّة في هذا الاختلاف مشتقَّة من التَّسمية نفْسِها؛ فأولئك لهم كتابٌ، وإنْ كان محرَّفًا؛ والمشركونَ ليس لهم كتابٌ، فلا ضابطَ يضْبطُهم، ولا عاصِمَ يحولُ بينهم وبين الإيغال المطْلَق في الشَّر، بل هم حائرون. وعلى هذا التَّحقيق اللغويّ فاختيارُ لفظِ المشركين الدالِّ على الخصوص يناسبُ سياقَ الآية المباركة؛ لأنّه لا يُدخِلُ في عموم النَّهي إلا الوثنيات ولا يُدْخِلُ فيه قطُّ الكتابيات؛ لأن الحقيقة العرفيَّة القُرآنيّة لَا تُدخِلُ اليهود والنَّصارى في عنوان المشركين، ولا في عموم الوثنيين، وإن كانوا مُثلِّثينَ.

خير وأفضل:

فرّق ابن رجبٍ الحنبلي بين اللفظين، فذهب إلى أنَّ لفظة (أفضل) إنما تستعمل في شيئين اشتركا في غير فضل، وامتاز أحدهما من الآخر بفضلٍ اختصَّ به، فهذا الممتاز قد شارك ذاك

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/716.

في الفضل واختصَّ عنه بفضلٍ زائدٍ. وأما لفظة ﴿خَيْرٌ﴾، فتستعمل في شيئين: في كل منهما نوع من الخير أرجح مما في الآخر سواء كان لزيادة عليه في ذاته أو في نفعه أو غير ذلك، وإن اختلف جنساهما فترجيح أحدهما على الآخر يكون بلفظة خير[1]. فترجيح صفة الإيمان في المؤمن والمؤمنة على صفةِ حُسْنِ المنْظر وغيره يناسبُه لفظة ﴿خَيْرٌ﴾ لما فيها من زيادة في نفعه.

(1) ابن حجر، فتح الباري: 1/40-41.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-54-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-54-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»